أمام أبي الهول

للأستاذ راجي الراعي

يا إلهَ الصمت ، ويا ملتقى الأسرار ، ويا عقدة الألسنة ، ويا مثال المتأملين !

أيها الأسد الرائع المتحفز منذ القدم للوثوب على فريسته التي لم يجدها بعد ... يا رهيب الفراعنة ، ويا رفيق « الأهرام » ، ويا عجيبة المصريين ... أيها المتكبر الجبار الذي لم يخفض رأسه لأحد في الدنيا ، وقد مرت كلها من أمامه ... يا مصيبة الثرثارين ويا محتج الحائرين ... أيها الضاحك الباكي ، السعيد البائس ، الحائر المهتدي ، الظل الساجي ، القوي بأهرامه ، الضعيف برماله ، الجريء بصدره ، الحكيم بلسانه ... أيها البحر الذي تلاطمت فيه أمواج الأسرار ولم تنفث زبدها ... أيها الناسك الذي لم يؤمن بالعالم فأقام في صومعة الرمال وانقطع إلى ربه ونفسه ، الناسك الأكبر ، زعيم الناسكين ، تدق له نواقيس الذكرى في أودية التاريخ التي تعاقبت عليه ، ومن يستطيع أن يحصيها ؟

أيها الظل بالذكريات عمرته بخمورها فلم يقو على العربدة ، وكيف يعربد الغريق ؟ وطوقته بجمالها وقبحها فجمد كالمجنون وتمكأ كأت عليه الخلائق ...

أيها البطل الضائع الذي ازدحمت في بطولته مشاهد القرون على مختلف ضروبها وألوانها فضاق بها ذرعاً ولبث مكانه لا يبدي حراكا ...

أيها المجرد بوسادته الحجرية لظي المغرمين ، المخجل برباطة جأشه المذعورين الفارين ، المحطم بصخرة حيرته وشكه سفينة المهتدين ، المخرس بفصاحة عينيه زمرة المعربدين ، الهازئ بالعابرات والعابرين ، الضاحك على الأذلاء الخانعين ، الباكي على الضاحكين !

يا أبا الهول الذي هالته نفسه فلم يعرف أين يضعها وكيف يعبر فيها ، ويا فتنة النيل ورب الوادي ... أيها الأمين الأكبر الذي يحمل مفاتيح التاريخ ولم يخن واجب الأمانة ، أيها اليوم مع المجهول عهداً يحمده عليه المعلوم ، أيها الغارق في لجج اللانهاية ولم يبلل ثوبه ... أيها المبسوط في حجره المتكمش في تصلبه ، أيها الطليق بعينيه السجين بين أنازه ، أيها الناظر إلينا نظرته الغريبة بين صممه وبكمه كأنه يقتنص بين السماء والأرض ممن جاءه بالصمم وعقل لسانه ليصعقه ويضمه إلى قلب رماله ...

أيها الواقف بين الماضي والمستقبل كأنه الصلة المفقودة التي نفتش عنها ! أيها الرجل العجيب الذي لم يتحرك بعد في هذا الجيل ، والكهرباء تشع في وجهه ، والطائرة تحلق فوق رأسه ! أيها الصابر صبراً دهشت له الأرض التي تصبر على موتاها ، ودهش له البحر الذي يصبر على غرقاه ...

أيها المتمرد الأكبر ، أيها الحاكي الذي يردد أصداء الإنسانية ، أيها السعداد الذي يحصي فضائل الخليقة وعيوبها وساعات نعيمها وبؤسها ...

يا أبا الهول !

أتيتك بعد تلك القرون التي توالت على رأسك .. أتيتك في القرن العشرين متأخراً ، وتفرست فيك ، فخطرت لي النعوت والأسماء التي كسوتك بها ... رأيتك بعيني ولا أدري بأي عين رآك أسلافي ، وحرت فيك كما حاروا من قبلي ، ورمتني الحيرة بين أمواج الخيال فتخبطت في أسرارك ، وغرقت في أوصافك !

ما هي حقيقتك يا سيدي وأين هي ؟ وهل أنت تجهلني كما أجهلك ؟ من أنا ؟ أنظر إليّ جيداً ... أقوي أنا أم ضعيف ؟ أسعيد أنا أم بائس ؟ أنا كاتب يعرض في القراطيس رسوم النفس والحياة ... فهل أطربك قلمي ، وهل رأيت رسوي ؟ ! هل أنت شاعر بي ، أم أنت تنظر إليّ وترى نفسك ؟ !

قل لي أبا الهول : ألأمسي أنا أم لغدي ؟ وأين هو رقمي في جدول الإنسانية ؟ وهل في جبيني السطر الذي تفتش عنه منذ القدم ؟ أمصيب أنا في عقيدتي أم مخطئ ؟ أنا للشاعرية ... فهل في حجرك من شعري ؟ وهل الشعراء في نظرك هم الناس ، وهل في صدرك الغامض فؤاد رحيم ؟

أتيتك أسألك عن حقيقتك وحقيقتي ، فهل من جواب يخرج من فمك ويريحني ؟ أما ناقت نفسك يا صاحبي إلى الكلام ولو مرة واحدة ، ألم تسأم الصمت ؟ ؟

حدثني .. وإن كنت معقود اللسان ، ففي عينيك الجاحظتين ألف بيان وبيان ... لا تخش أن تبوح لي بسرك ، فقد هجرك الناس وجئتك وحدي ، وفي هذا الدليل على حبي وإخلاصي ...

إن في رأسك حلماً كبيراً قديماً حار فيه لسانك ، وسقط تحت أثقاله صدرك ، فجثمت مكانك صابراً صبر الأسياد لا صبر